المحاضرة الثالثة
القراءة الأولية:مصادرها طريقتها أهدافها

القراءة الأولية عملية تسبق مرحلة جمع المادة التاريخية للموضوع، وترجع أهميتها إلى أنها تيسر مرحلة جمع المادة التاريخية –التقميش -، وفي الحقيقة أن كل مرحلة هي تمهيد وتيسير للمرحلة التالية، ولذلك على الباحث أن يعطي لكل مرحلة حقها من الوقت والجهد ويحقق شروطها. فما هي أهداف هذه المرحلة وكيف تكون؟

ينتظر الباحث من القراءة الأولية تحقيق ثلاثة مطالب أساسية على الأقل وهي:

أولا: تحديد وضبط أبعاد موضوع البحث الثلاثة

ونقصد بها البعد الموضوعي والبعد الزماني والبعد الجغرافي (المكاني)، وهي عملية مهمة لما بعدها، وحتى لا يتيه الباحث في مرحلة جمع المادة العلمية، وكذلك تساعده في ضبط عناصر البحث.

أ- البعد الموضوعي: والمقصود به ليس الطابع السياسي أو الاجتماعي أو الثقافي فقط، ولكن مجال البحث في إحدى أو بعض المحاور من تلك الجوانب، فمثلا موضوع:**"قضية التدخين عند فقهاء الجزائر في الفترة الحديثة"** يرتبط بالمجالين الاجتماعي والثقافي، ويناقش قضية محددة هي قضية التدخين، فلا يصح الخروج عنها إلى قضايا أخرى ولا إلى مسائل ونشاطات أخرى للعلماء إلا ما كان له علاقة بمسألة التدخين.

ب- البعد الزماني: ونعني به تحديد الإطار الزماني للموضوع، وعادة ما يكون مضبوطا ومحددا بسنوات أو قرون في المواضيع الحدثية الوقائعية وتغطي غالبا الجوانب السياسية والعسكرية، ويكون الإطار الزماني تقريبيا في البحوث التي تدرس حالات لموضوعات اجتماعية وثقافية واقتصادية خاصة، ففي الموضوع السابق " قضية التدخين..." إطاره الزماني هو الفترة الحديثة ويمكن تعديل الموضوع وتحديده في قرن أو قرنين، وأحيانا قد يختفي البعد الزماني في عنوان البحث الذي يرتبط بعمر شخصية البحث أو دولة أو حرب، مثل عنوان **"النشاط السياسي للحركة الوطنية الجزائرية خلال الحرب العالمية الثانية"**؛ إن تحديد الإطار الزماني منذ البداية يجنب الباحث تضييع الوقت في جمع المادة العلمية التي لا ترتبط بصلب موضوعه، وتمكنه من ترتيب المادة التي توفرت لديه إضافة إلى حسن تعرفه على وثائق ومصادر بحثه.

ج-البعد الجغرافي (المكاني): لا تقل أهمية هذا البعد عن البعدين السابقين، وله نفس الأهداف والخصائص إذ قد يظهر كما في العنوان الأول أو يختفي كما في العنوان الثاني، حسب طبيعة موضوعات "الأحداث" و"الظواهر"؛ وعلى كل حال هذا التحديد ضروري في المرحلة الأولى، ويقوم به الباحث بالاستعانة بالمشرف أو غيره من الأساتذة خاصة منهم من عمل في مثل موضوع بحثه.

ثانيا: تحديد إشكالية البحث

يقول الخليل بن أحمد الفراهيدي[1]: **"العلومُ أَقْفال، والسؤالات مفاتيحُها".**

إن ضبط وتحديد الإشكالية محطة أساسية وضرورية في المرحلة الأولى، والبحث سمي بحثا لأنه يبحث عن إجابة لإشكالية أو مجموعة أسئلة، وهي غير الأسئلة الفرعية التي تتخلل متن البحث في أبوابه وفصوله، فالأولى تأتي في البداية قبل البدء في جمع المادة العلمية، والثانية يطرحها الباحث أثناء جمع المادة التاريخية ولها أهميتها في تحفيز الباحث وتتبع جزئيات البحث، كما تسمح كثرة الأسئلة بترقية وتأهيل الإشكالية الأساسية، التي لا تكون نهائية في البداية وتضبط وترقى مع مسيرة البحث، ويجب أن ترتبط بالموضوع الأساسي في عنوان البحث، وأن لا تكون بسيطة في صيغة سؤال استفهامي، ويستحسن طرحها بصيغة جدلية أو البحث في أبعاد قضية ما، حسب طبيعة الموضوع ومصادره، ومن خصائصها:

- أن لا تكون صعبة إلى حد استحالة الوصول إجابة خاصة إذا فقد الباحث أدوات العمل في موضوعه (توفر الوثائق والمصادر – اللغة – الإشراف...).
- أن تكون الإشكالية ضمن الاختصاص العلمي للبحث ومرتبطة مباشرة بالعنوان.
- الإشكالية هي البحث ويجب أن تكون لها أهمية ومنفعة للبحث العلمي أو مجالات التنمية في المجتمع أو على الأقل تقدم إضافات في تكوين الطالب العلمي.
- لخص بعض الباحثين معايير اختيار الإشكالية في: حداثتها – أهميتها وقيمتها العلمية – اهتمام الباحث بها – توفر الخبرة والقدرة على معالجتها – توفر الأدوات والإشراف.

ثالثا: تصميم خطة أولية للموضوع.

قد يسأل السائل كيف يمكن لباحث مبتدئ في مرحلة الماستر أن يضع خطة لموضوع مذكرة وهو يجهل عنه الكثير، نقول بداية توجد ثلاثة عوامل تساعد الطالب على وضع خطة أولية لموضوعه هي: معرفته المسبقة ولو كانت بسيطة التي اكتسبها من عرض بحوث السنوات السابقة في مرحلتي الليسانس والماستر، ومما تلقاه من الأساتذة، فهي وان كانت تجربة محدودة فيمكن أن تساهم في فتح بعض الأبواب المغلقة في بداية الطريق، والعامل الثاني يجب أن يضع الطالب نصب عينيه علاقة الخطة التي سيضعها بعنوان البحث، فقد يكون العنوان مشتملا على قضيتين أو ثلاثة أو قضية واحدة، وقد يكون موضوع بحثه دراسة واقعة أو شخصية أو كتاب أو دراسة حالة معينة – يعني ظاهرة –؛ إضافة إلى أن مجموعة من المواضيع في الجانب السياسي مثلا وفي فترات زمنية أو أقاليم حضارية وجغرافية مختلفة تتشابه في كثير من عناصرها – الموضوعات-، وكذلك الحال في موضوعات الجانب الاقتصادي أو الاجتماعي أو الثقافي، والعامل الثالث وهو الأهم أن الطالب لا يستطيع رسم خطة أولية لموضوعه إلا بعد القراءة الأولية التي تزوده بمعارف أولية ومعلومات ولو كانت بسيطة عن موضوعه، وهكذا تتعاون هذه العوامل الثلاثة لبناء مخطط ولو مختصر للموضوع فيعرضه الطالب على المشرف الذي يؤشر عليه بالموافقة أو يطالبه بتوسيع قراءته حول الموضوع وإعادة صياغة خطة أخرى تكون أصح من الأولى؛ ويجب التأكيد على ضرورة

---

[1] - الخليل بن احمد الفراهيدي البصري(نسبة إلى البصرة بالعراق) (100ه-170ه) شاعر ولغوي ونحوي وواضع علم العروض، وأستاذ سيبويه في النحو، له مجموعة من المصنفات في اللغة والعروض والموسيقى. أنظر: الموسوعة العربية الميسرة.

إعمال العقل وبذل الجهد في هذه المرحلة، ولا يعتمد الطالب على المشرف في وضع الرسم للموضوع بل عليه أن يقدم محاولة ثم يطلب منه التصحيح والمساعدة.

كيف تكون الخطة؟ إن لم يستطع الطالب وضع خطة مفصلة بثلاثة مستويات، فليصمم خطة عامة تتضمن العناصر الأساسية وهي الفصول والعناصر الفرعية – أي خطة من مستويين- مع مقدمة مختصرة تتضمن على الأقل أهمية الموضوع وبعض الدراسات الأكاديمية حوله مع طرح الإشكالية، وما يقال عن الإطار الزماني يقال عن التصاميم، فكلما كانت المعرفة بالموضوع ناقصة أو القراءة الأولية عنه محدودة كلما كانت الخطة في البداية عمومية، وعلى الطالب أن:

- يتجنب طول الفصول التمهيدية والتأخر في الدخول لصلب الموضوع.
- يراعي التوازن – التقارب – بين الفصول في عدد عناصرها الفرعية والجزئية.
- كلما كانت الخطة مفصلة أكثر كلما سهل عليه جمع المادة وصبها في العناصر المناسبة.
- الخطة تثرى وتعدل في مراحل البحث التالية بهدف التصويب، وذلك بإضافة أو حذف أو دمج العناصر أو التقديم والتأخير فيها، مع ضرورة إخبار المشرف بكل تطور وتغير في التصميم.
- مهما قيل عن الخطة أنها أولية فيجب أن تكون قريبة من الصحة، وإلا لا يستطيع الباحث الشروع في مرحلة التقميش – جمع المادة –، وعادة ما يقرر المشرف قيمة الخطة وعلاقتها بموضوع البحث.

مراحل إنجاز خطة البحث

يمكن تقسيم مراحل إنجاز الخطة إلى ثلاث هي:

أولا مرحلة تأسيس الخطة المبدئية: تبدأ هذه المرحلة بعد اختيار الموضوع ويستعمل فيها الباحث أداتين أساسيتين هما العملية العقلية والقراءة الأولية، فعن طريق العملية العقلية يقرأ الباحث عنوان بحثه ويقلبه في ذهنه ويتساءل عن حدود مفاهيم الكلمات التي يتضمنها، ويسجل ملاحظات في ورقة كما يسجل الأسئلة التي تراوده حول الموضوع وأهدافه والنتائج المنتظرة من البحث فيه، كما يسجل كل ما يتذكر من مصادر ومراجع بحثه؛ فالعملية العقلية الذاتية تسبق كل الوسائل المساعدة الأخرى قبل الاستعانة بغيره وبوسائل أخرى.

الآلية الثانية لوضع الخطة المبدئية هي القراءة الأولية أو الاستكشافية، وتكون من الكتب المختصرة والمقالات العلمية، وكلما تعددت وتنوعت مدارسها التاريخية أفادت الباحث وعرفته على عناصر جديدة لبحثه.

بعد هذه العملية ينتهي الباحث لوضع خطة أولية أو مبدئية، يجزئها ما أمكنه الحال، يجب أن يقبلها المشرف حتى يستطيع الباحث الانتقال إلى مرحلة جمع المادة العلمية، وهي مرحلة لها علاقة وطيدة بخطة البحث.

ثانيا مرحلة التعديل والإثراء: يؤكد الكثير من الباحثين في الدراسات التاريخية أن الخطة تحددها المادة العلمية المتوفرة، وهو رأي له قيمته ولكن دون إهمال ضرورة الانطلاق بخطة مبدئية، ومرحلة جمع المادة العلمية – عن طريق ما يعرف بالقراءة البحثية- التي تعرف الباحث بوثائق ومصادر ومراجع ودراسات علمية عديدة، وهنا يتعرف على عناصر جديدة

لبحثه، فيضيف الكثير من العناصر خاصة الجزئية والفرعية منها، وعند الانتهاء من مرحلة جمع المادة العلمية ينتهي إلى خطة مفصلة وموسعة أكثر من الخطة الأولية التي انطلق بها، وهي تنتظر المراجعة والضبط النهائي وهو ما يقوم به المرحلة التالية.

ثالثا مرحلة الضبط النهائي: تتم هذه العملية عادة في نهاية مرحلة المعالجة للمادة العلمية وقبل مرحلة التحرير، بعدما يستعمل الباحث مختلف العمليات النقدية على مادته العلمية ينتقل إلى مرحلة العمليات التركيبية، وفيها يراجع ويتأكد من ترتيب وتركيب مادته العلمية وهي عناصر خطته، وهنا عادة ما يظهر له التفاوت في حجم المادة بين عناصر بحثه وكذلك الفجوات في بعض العناصر، فكيف يتصرف في هذه الحالة؟

هنا عادة ما يرجع الباحث إلى توسيع قراءته البحثية من مصادر ومراجع جديدة ليحصل على مادة علمية للعناصر الضرورية في خطة بحثه ولكنها فقيرة للمادة العلمية؛ أما التوازن بين الفصول والعناصر البحثية فهنا يعيد عمليات الترتيب والتركيب، ويمكنه دمج بعض العناصر في بعضها أو حذف أخرى.

خاتمة

بعد الضبط النهائي للخطة يشرع الباحث في إنشاء الصيغ العامة ويذهب مطمئنا لمرحلة التحرير، وبعد كل مرحلة من مراحل انجاز الخطة عليه أن يستشير مشرفه ويحاول إقناعه بما اقتنع به من تعديلات للخطة في مراحلها النهائية، وهو ما فرضته المادة العلمية وما يلزمها من ترتيب وربط وتركيب.

رابعا: وضع قائمة مصادر ومراجع

تكون هي الأخرى أولية وتثرى خلال المرحلة التالية، ويجب أن يراعى فيها التنوع، بحيث تشتمل على: الوثائق – إن وجدت – ، المصادر، الدراسات الأكاديمية والمقالات العلمية بالمجلات المتخصصة محليا ودوليا، خاصة منها القريبة لموضوع البحث حتى تبرز النتائج القديمة من الجديدة، إضافة إلى المراجع العامة ودوائر المعارف والقواميس المتخصصة حسب طبيعة الموضوع.

يحصل الباحث على مصادره أثناء القراءة الأولية من الكتب العامة المختصرة ودوائر المعارف والمقالات العلمية المتخصصة، وتشترك هذه الأدوات في أنها تقدم للباحث مادة مختصرة مركزة حول موضوعه، وتعرفه بأهم مصادر ومراجع بحثه، وعلى الطالب أن يركز جهده في هذه المرحلة – القراءة الأولية – على المقالات المتوفرة بالمجلات المتخصصة الموجودة اليوم بين يديه في أرضية المجلات العلمية الجزائرية "ASJP"، فتمكنه هذه الآلية من تحديد أهم مصادره ومراجعه؛ إضافة إلى الاستعانة بالأساتذة في جامعته أو خارجها خاصة وأن وسائل الاتصال اليوم قضت على الكثير من المصاعب في هذا الطريق.

إن عملية تحديد قائمة المصادر والمراجع لا تتم من خلال العناوين فقط، ولكن يجب الاطلاع على مضمونها ولو بقراءة المقدمة وفهرس الموضوعات، حتى يتأكد الطالب من علاقة المرجع بموضوع البحث لأن الكثير من العناوين مغرية وقد تخدع الباحث في علاقتها

بالبحث؛ أما المصادر خاصة منها غير المحققة فيمكن الاطلاع على مضمونها بالرجوع إلى الدراسات العلمية التي أنجزت حولها.

إن توقف الباحث عن حصر وتحديد مصادره ومراجعه يرتبط بعدة عوامل أهمها: طبيعة العمل إن كان أطروحة دكتوراه أو رسالة ماجستير أو مذكرة ماستر، فهذه الأخيرة قد تتم العملية في بضعة أسابيع باعتبار أن مدة إنجاز المذكرة بكاملها لا تتعدى سنة، العامل الثاني توفر قائمة متنوعة في اللغات – بمعنى تنوع المدارس التاريخية ووجهات النظر – وأنواع المصادر(وثائق – مخطوطات – مصادر ...) إضافة إلى ضرورة وجود الدراسات الأكاديمية والمقالات العلمية؛ وفي الأخير يمكن إضافة عناوين أخرى للقائمة أثناء مرحلة جمع المادة.

بعض المراجع

المراجع المتعلقة بمنهجية إعداد بحث علمي كثيرة ومتنوع ومتوفرة على النت، ونذكر منها:

- ناصر الدين سعيدوني، في منهجية البحث التاريخي.
- عبدالواحد ذنون طه، أصول البحث التاريخي.
- محمد العربي معريش، دليل الطالب في منهجية البحث والعرض التأريخيين.
- جمال الخطيب، إعداد الرسائل الجامعية، دليل عملي لطلبة الدراسات العليا؛ دار الفكر، الأردن،2006
- أومبرتو إيكو، كيف تعد رسالة دكتوراه
- عبدالله بنمليح، محمد استيتو، مناهج البحث في الانسانيات والعلوم الاجتماعية